يريد أن ينساها

للأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

فضى سواد ليله وهو يعد خفقات قلبه فضاء يعدها ويتدبر معناها تدبر شاب يدرس مهنة الطب ويقف إلى مائدة التشريح ليعمل مشرطه فى جوارح وأعضاء كان يخاف عليها أصحابها هبة النسيم !

وأخذت أفكاره تتضح كلما خطا الليل نحو الأمام خطوة وخطت الحركة فى المدينة نحو الوراء خطوة عكسية حتى لم يعد يسمع جمجمة عربة ولا حفيف سيارة . وكلها مر من فوق رأسه فتدخل إليه الضوضاء من خلال النوافذ لأنه ساكن فى « بدروم » وحتى الحركة فى الحجرتين الأخريين الملاصقتين للشقة سكنت ونامت . وأمسى جو « البدروم » مشبعا بارطوبة أكثر من قبل ، وذلك أيضا لأن الليل خطا خطوة جديدة نحو الصباح

وخفتت الأصوات فى الحجرة اللاصقة التى يسكنها طالبان من طلبة الأزهر . حتى بينهما وطيس الجدل قبل أن ينامـا حول مسألة لا يدرى طالب الطب أفقهية هى ، نحوية ؟!

وأخذت أفكاره تتضح تحت رواق الليل حتى لكأنه يلمسها لمسا . واستمع من جديد إلى خفقات قلبه فاسترسل معها يستعطف إيفان قائلا « اعف عنى فإن وقع السوط على جلدى حين جلدونى لم يكن بأقسى من نظراتك إلى ... لقد رحمتنى فلم تتحدث عن جريمتى ، والآن التمس أن تعفو عنى ... » ثم أجهش بالبكاء

وسمع إيفان نشيج الرجل فانخرط هو الآخر فى بكاء طويل وهو يقول « يعفو عنك الله ... يعفو عنك الله » وأحس حينذاك أن قلبه قد أصبح طاهرا نقيا لا يحمل ضغنا ولا يحوى حقدا . وأحس أنه لا يريد أن يغادر السجن وتمنى لـ تقترب ساعته الأخيرة

وانطلق سيميونيتش إلى الحاكم ليعترف بجرمه القديم . وصدر الأمر بالإفراج عن إيفان . وحين انطلق البشير ... انطلق ليرى الرجل القديس قد أسلم الروح

كامل محمود حبيب

وعاش ، كما تسترسل مع النغم حتى تخال أنك سابح فيه . ثم جعل يسأل نفسه عن عدد دقائقه منذ دبت فيه الحياة حتى جاوز اليوم سن العشرين ، وإلى أى مدى ستدوم هذه الدقائق ؟ وكم من ملايين الملايين سيبلغ عددها يوم الممات ؟ ! يالله من عضو نشط مسهر حتى وهو نيام ؟ !

ثم أمسك لأنه انتبه إلى دقات ساعته من تحت الوسادة وابتسم حين رأى بين الجهازين تشابها عجيبا — كلاهما يدق ! ! هذا يدق فيجعلنا نحس الوقت لأننا نعيش ، وذاك يدق فيجعلنا نحصى الوقت لنعرف كم نعيش ! ؟

وتخلصت أفكاره من استطرادها الطارئ فعادت إلى ما كانت فيه من قبل . ذكر القلب ودقات القلب ، فاستحضر صورته كما رآها فى حجرة التشريح ، له أذينان وبطينان ، وأوردة وشرايين ، وأشياء أخرى — لكنه وثب وثبة كبرى تخرج من دنيا العلوم إلى دنيا العواطف ، وذكر اليوم الحاسم الفعال فى علاقته معها ثم بدأ يستعرض القصة

* * *

كان يريد أن ينساها ولو أن كل شىء يذكره بها . وهذا هو الأسبوع قد دارت دورته وجاء صباح الخميس —

إذن فهو لم يرها منذ أسبوع . منذ الخميس الماضى بعد أن أمسى المساء فلقيها فى مسكنها . وبعد أن قضى معها فترة من الوقت هبط درجات السلم المظلم الدائر وقد صمم عزمه على ألا تطالع عيناه معارف وجهها الحلو مرة أخرى ولو أحرقت أوصاله النار . ولم تكن هى تعلم بأنه اتخذ هذا القرار ، إلا كان من الجائز جدا أن تلقى بنفسها من النافذة على مرأى منه حتى تضمن أن يسجى جسدها بيمينه .

ومر الأسبوع كالحا ثقيلا كان فيه أشبه بمن يعيش فى دوامة ، لكنه كان مصرا على ألا يرجع خطوة واحدة إلى الوراء ، لاعتبارات شتى أهم مافيها أنه يريد أن يضع نهاية لهذا اللون من الحب ، وأنه جعل رجولته فى كفة وجعل السلوان فى كفة أخرى ، وأنه أراد أن يضع رجولته كذلك فى بوتقة تجربة عالية الحرارة ليستيقن من أنها ستثبت على الصهر

وهكذا مر الأسبوع . وخرج فى صباح يوم الخميس آخذا سمته إلى الكلية ، وكان منشرح الصدر نوعا ما لأنه لم يحس ضعفا خلال المدة التى انقضت وإن قاست نفسه ضروبا من الحنين وألوانا من الأفكار .

وقف الطلبة حول منضدة التشريح فى القرفة وبدأوا يستلون أسلحتهم ليعملوها

فى جوارح خاف عليها أصحابها هبة النسيم وكان بين أيديهم فى هذه الحصة ... قلب !

وقلما يتساءل الطبيب وهو يعمل المبضع فى هذا العضو المعبر ، وعاء العواطف ، قلما يتساءل : ترى قلب من هذا ؟ وإن تساءل مرة أو مرتين فغالبا ماتتخلف الثالثة . وإذا افتتحت بمنطق عابث ستسلم باستحالة أن يسأل الطبيب نفسه قائلا : أقلب امرأة هذا ، أم قلب رجل ؟ وبعد ذلك يغمد فى القلب السلاح بقسوة من يغمد المدية فى جلدة البطيخ . وهذا هو مايجرى فى حجرات التشريح .

لكن الذى حدث صباح يوم الخميس كان غير ذلك ، لأن أحد الطلبة ممن التفوا حول المنضدة تساءل بعد أن علت شفتيه ابتسامة خبيثة : ترى قلب من هذا : ؟ ! فهمس فى أذنه جاره الأيمن وكان كثير المرح يقول له : « ولا القلب إلا أنه يتقلب » هذا هو كل ماتخلف فى ذهنى من رواسب المدرسة الثانوية ... هل تعرف صدر هذا البيت ؟ ... مالنا ولصاحب هذا القلب أيها الزميل ؟ فقال الأول : حسبتك تعرف صاحبه . فابتسم الجار الأيسر ، وهو صاحب القصة ، ثم مال إليهما مستغربا موضوع الحديث ، فما كان من الطالب الأوسط إلا أن همس : إننى أعرف صاحبة هذا القلب !!

ثم انقطع الحديث بعد ذلك ... وبدأ الطلبة يسيطرون على الحقوق التى فرضتها الحياة للجسم والقدسية التى فرضها الموت للأعضاء ، فأعملوا فى القلب المشارط وحمى وطيس الدرس فنسى المتسائلون ما كانوا بصدده من قول أملى بعضه كأن نفحة شاعر يقول بعضه الآخر كأن دعابة من دعابات الشباب

لكن الطالب الأوسط مالبث أن أعلن بعد انتهاء الدرس على مسمع من المجموع أنه يعرف صاحبة هذا القلب . فأقبلوا عليه يستفسرون فى فضول مختلف الدرجات فقال وهو يضحك ملء شدقيه : إنه قلبها ... قلب تلك الحسناء ... حسناء حارة السقاء ... فى درب الجوخة نمرة ٥ .

هل فيكم من يعرف اسمها ؟ ... كان اسمها جمالات !

فضحك بعضهم ضحكة ماجنة متهتكة : « هى ! هى ... ليرحمها الله ! »

* * *

كان يجاهد نفسه أيامها ولكن الأقدار أراحته من هذا العناء .

التقيا يوم الخميس وودعها دون أن تشعر بوداعه ، ثم حدثته نفسه فى الخميس التالى أنه ثبت فى التجربة وهو لايدرى أن ثمة أقوى من كل شئ سيحول بينه وبينها إلى

مدى لايعلم غايته إلا الله !!

وقضى سواد ليله وهو يحصى خفقات قلبه فى خلال السكون ويسترجع صورة قلبها تحت ومض المصباح ، فخيل إليه أنه كان يخفق بحب حين وهو فى هذه الحالة ، فستقطع الأمر وقد يصرخ فى ظلام الغرفة ثم أمسك يسائل نفسه : أين موضع الحب من قلوب الناس ؟ وهل تمثل فيه أحراف الموضع فى مواضع التشريح ؟ ألا ليتنى أعلم !

وهم بأن يصرخ مرة أخرى لكن تحجر الشيخ « أبو المعاطى » فى الحجرة الملاصقة انتهى إلى سمعه فنحاه عن يسار أفكاره شيئا . حين قلب حياة جاره فى نواحى فكره وتمنى أن تتاح له هو مثل هذه الحياة ... الحياة الباردة التى لا تصرخ فى جوانبها شيء .

لكن جملات ، حسناء درب الخوخة وحين أبواب فكره مرة أخرى : إنهم لايعلمون أنه الشخص الوحيد الذى وفق فالتقى بالشخصية الشريفة فى جسدها المبتذل حتى أصبح هو فى حياتها أشبه بالواحة وحيدة فى صحراء دنياها الواسعة الجدبة

دخل حجرتها أول مرة وهو متأبط ذراع الشيطان ، فدخلا يقهقهان ثم خرجا يقهقهان ، وتكررت التجربة لكن طالب الطب خرج فى المرة الثالثة وهو حزين سادر حين اكتشف بين أنقاض الجسم وخرائب المادة روحا جميلا شفافا اندفن تحت هذا الركام

وتحدث الملاقة بينهما تختمر نحو الصداقة رويدا رويدا ، واختلط الزيت بالزئبق على الرغم من كل شيء ، لأن طالب الطب كان يعتذر لنفسه كلما دفعه إليها قلبه متعللا بأن الزيت والزئبق من المحال أن يمتزجا ، وسيبقى كل منهما منفصلا عن صاحبه وإن طالت مدة التجاور .

وكان يلقى من أمره عسرا عند كل افتراق لأنها كانت تتشبث به تشبث الغريق بالقدين وتكاد تتعلق بأذياله كما تتعلق المرأة الأيسة

لكنه قرر فجأة ألا يلقاها ...

وكان ذلك عقب تقديم هدية إليها ، ولم يكن هو من اليسار بحيث يستطيع أن يقدم إليها كثيرا ولم تكن هى من الاستغلال بحيث تطلب منه أى شيء . فأحس خجلا وحسرة حين تخيل أنه يقتضيها ثمن حنانه القلبى بطريقة «المقايضة» فكأنه يأخذ ثمن العطف متعة . ومن أجل ذلك قدم إليها هدية !!

كانت خاتما جميلا فيه ثلاث حبات من الماس . ألبسها إياه وهما مستغرقان فى الحديث ، فلما انتهت إلى مافعل سهمت

سائلة مبهوتة وقد أشرق وجهها النحيف بنور فرح ضئيل قالت : « أهو لي ؟ ... هل أستطيع أن أرتديه لا ! ... أخشى أن أغضبك ... أو أن أرهقك »

ثم تبين له بعد ذلك أنه فعل أمرا منكرا لأن البون شاسع بين كف أمه والكف التي تختمت به الآن . وقامت في ذهنه قضية معقدة لأن الموازنة بين المرأتين في حياته المحدودة جعلته يضع جمالات في نفس المكان الذي تضعها فيه كل الرجال . وكاد ينكر نفسها المظلمة التي طمرت تحت أنقاض الحسد بفعل أيدي الناس !!

ثم ذهب به الفكر حتى وضع المرأتين متجاورتين فرأى أمه الريفية وعلى رأسها طرحة سوداء تستدير مع استدارة الوجه وهي راكعة عند المدخل على سجادة من الحصير . ثم رأى جمالات وقد تناثر شعرها في فوضى مثيرة وقد تكون مريبة ، فهي امرأة تتزين في كل يوم عشرين أو ثلاثين مرة ، ولا تعرف دخلها بعد إحصاء عدد مرات الزينة !!

وبعد ، فهذا الخاتم يحمل ذكريات عزيزة . حملته أمه إياه ليصلح بعض فصوصه التي انخلعت من مكانها ثم يعيده مع من يراه أهلا لحمل الأمانة ... لكنه خان الأمانة وسيقف بعد ذلك موقف الكاذبين حين يخبر أمه في رسالة أن الخاتم قد فقد [illegible] حزن يشعر بالإثم ويطلب المغفرة

* * *

وانقضى أسبوع على هذا الحادث

ولعلها كانت تنتظره في كل مساء [illegible] تحادثه . ثم وقعت الكارثة وشربت [illegible] درب السوخة السم في كأس من الشراب [illegible] دمه لما خانها ربما كانت قد عقدته يداها على قلبه وسقطت على جبينه [illegible] عنهما دما . ونقلت إلى المستشفى وحملت معدتها لتتخلص من السم ولكن [illegible] تسرب إلى صدر شقي فأشقى ، وخدع فخدع فالتهبت رئتاها كأنما شب فيهما حريق وركب الهذيان وهو واثق أنه كان موضوع هذيانها .

وها هو ذا الليلة يحصي دقات [illegible] ويتحسس في ظلمة الزمن يوما سيكف فيه عن الخفقان لأن موتها ذكره بالموت

ثم مال ميزان المعركة أخيرا ، وانتصرت الحياة فبدأ يفكر في طريقة السؤال ونزل من فراشه وتحسس زر النور [illegible] الغرفة ...

وجلس على مكتبه وأمسك القلم كأنه أمسكه ليكتب شيئا ...

لكن التفاتة حانت منه إلى خزانة الكتب فرأى على حافتها العليا شيئا تعلق